

## جون لوك ورسالة في التسامح

*John Locke and A Letter Concerning Toleration*

د. آسيا واعر

جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر)، [assia.ouar@univ-annaba.dz](mailto:assia.ouar@univ-annaba.dz)

تاريخ النشر: 05 / 02 / 2022

تاريخ القبول: 07 / 01 / 2022

تاريخ الإستلام: 12 / 05 / 2021م

## ملخص:

إنّ ما يعيشه العالم اليوم من أزمات طالّت جميع الميادين والأصعدة، إنما هي أولاً وقبل كل شيء أزمة في التسيير النابعة من أزمة سريرة الأنقس وما ينجم عنها من سلوكيات سلبية تمثلت في العنف والعدوان، مما ترتب عنه زعزعة الإستقرار السياسي ومنه الأمتي لمختلف الدول، هذا ما تفتّطن إليه الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" *John Locke (1632-1704)*م، حين خط "رسالة التسامح" والتي دعا فيها إلى ضرورة التماس التسامح الديني، وفي إعادة النظر إلى العلاقة القائمة بين السلطة الدينية والسلطة المدنية وكيف أنّ لكل منهما مجالها الخاص، ولا يكون هناك انشقاق إلا بالدمج بينهما، إنّ ورقتنا البحثية هذه تهدف إلى تحليل رؤى "جون لوك" في نظريته هذه معتمدين بذلك المنهج التحليلي والذي بدوره يتضمن المنهج النقدي والمقارن مما أسفر عن نتائج لها وزنها وهذا في تبيان مدى مصداقية وجهة نظره

الكلمات المفتاحية: التسامح، الحاكم، الدولة، الدين، السلطة. الكنيسة.

\*\*\*

**Abstract:**

*The crises that the world is experiencing today in all areas and at all levels are, first and foremost, a crisis in conduct resulting from the crisis of negative behaviour of violence and aggression resulting therefrom, This is what **John Locke (1632-1704)** says. When he wrote "**A Letter Concerning Toleration**", in which he advocated the need to seek religious tolerance, and re-examined the relationship between religious power and civil power and how each has its own domain, Our research paper aims to analyze John Locke's ideas from this perspective, drawing on this analytical approach, which in turn includes the critical and comparative approach, resulting in weight results, and this shows the credibility of his point of view.*

**Keywords:** Church; Governor; Power; Religion; State; Tolerance.

لا يكون الإنسان إنساناً إلا إذا كان يتمتع بقيم إنسانية وبقيم أخلاقية يتميز به عن سائر الحيوانات الأخرى، حتى أنه يمكن القول بأنه يلا يتسنى له بأن ينتقل من مصاف الحيوانات إلى مصاف الإنسانية إلا بالمبدأ الأخلاقي، هذا الأخير الذي يضم مجموع الفضائل والصفات الخيرية من عدل وإحسان ومحبة وتآلف وتآزر، وما إن تنقلب موازين السنن الكونية من شن الحروب وانتشار العداء والبطش، وإلا وتنقلب معها طبائع الذوات البشرية من الأخلاقية إلى اللاأخلاقية، وهذا يرجع بالسلب على مستوى علاقة الأفراد فيما بينهم كما ينعكس على المستوى العام وهذا في علاقات الدول بعضها ببعض، مما ينجم عنه تهديداً في استقرار الدول وأمنها، الأمر الذي دعا الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" إلى البحث في القضية وهذا من خلال ما عايشه من اضطرابات سياسية ومشادات بين رجال الكنيسة هددت الأمن القومي والأمن الوطني لإنجلترا، وإذا كانت مهام الفيلسوف في تحليل الأزمات والبحث عن أسبابها بغية الوقوف على الحلول الناجعة لذلك، نجد "جون لوك" قد حمل على عاتقه السعي وراء إيجاد حل للأزمة التي كانت تعاني منها بلده -إنجلترا- بصفة خاصة والدول الأوروبية بصفة عامة، الأمر الذي أدى إلى طرح إشكال عن الكيفية التي عالج بها جون لوك الأوضاع الحرجة التي كانت سائدة في عصره وعن الحلول أيضا التي رأى أنها مناسبة في حل الأزمة، اجتهاد حواه مؤلفه "رسالة في التسامح" *"A Letter Concerning Toleration"*، وفيه قام بتحليل أسباب الأزمة السياسية والتي وجد أنها مرتبطة بما يصدر من تعاليم الكنيسة وتعاليم رجالها، ليرى أنّ الفصل في القضية إنما يكمن في الفصل بين السلطتين باعتبار أنّ السلطة الدينية تختلف عن السلطة المدنية، إذ لكل مجالاته واهتماماته الخاصة به، ولا يملك أي منهما الحق في أن يتدخل في صلاحية الآخر. وهذا ما تهدف إلى تبيانها ورقنتنا البحثية هذه، فضلا عن تبيات مدى توافق آراء "جون لوك" في حل الأزمة السياسية؛ إنّ طبيعة دراستنا اقتضت اعتماد المنهج التحليلي الذي حللنا فيه موقف "جون لوك" من المبدأ الأسى والأمثل في القضاء على كل ما يعكر صفو الإنسانية، إنه مبدأ التسامح الواجب الإمتثال إليه هذا إذا ما أردنا أن نحقق مبدأ السلام على سطح الأرض، وتحليلنا للإشكال تضمن نقاطا تالية:

## أولا: مقدمة في التسامح

### التسامح -la tolérance-

#### 1. في ضبط الدلالة

التسامح -latolérance- هو "التساهل، والتسامح في شيء التساهل فيه، والمسامحة المساهلة. هو الجود" (منظور، 1291، صفحة 2088)، والسماحة بذل ما لا يحب تفضلا (الجرجاني، 1985، صفحة 90)، له عدة معاني: الأول منه احتمال المرء بلا اعتراض كل اعتداء على حقوقه الدقيقة بالرغم من قدرتها على دفعها، وهنا نضع سطر تحت المقدرة على الدفع، أي أنّ التسامح لا يكون أبداً في حال الضعف والعجز وإنما هو فضيلة تنبع من الداخل وبرضا من النفس، هو تغاضي السلطة بموجب العرف والعادة عن مخالفة القوانين التي عهد إليها في تطبيقها، كما يؤول التسامح إلى دلالة حرية التعبير وترك للإنسان الحرية المطلقة في التعبير عن أفكاره وعن إيديولوجياته وإن كانت مضادة للرأي الآخر، وأخيرا مجمل تعاريفه تكمن في أنه الإمتناع عن كل ما فيه قوة، عنف، تعصب، قبح وخداع (سعيد، 2004، صفحة 103)؛ إنه سلوك الذوات التي تتحمل من دون أن تحتج أو تتذمر لما يحصل لها من انتهاك لحقوقها ومنافعها الشخصية، مع القدرة على ردة الفعل والتصدي، فضلا عن إعطاء الحرية في القول والفعل للأخر بحسب ما يمليه عليه مختلجه ووفق معتقده وإيديولوجياته، وفي موضع آخر ثبت المصطلح على أنه استعداد عقلي قوامه الحرية في التعبير حتى وإن كان

هذا الأخير مخالفا ومعارضاً (لالاند، 2001، صفحة 1460)، إلى غيرها من التعريفات التي تحمل ذات معنى واحد وتصيب في قالب مبدأ الالتزام باللين والرفق في السلوك سواء أكان في القول أو في الفعل، الأمر الذي يؤدي إلى تجاوز العديد من الإشكالات والصعاب التي يمكن لها أن تحيد في التواصل مع الآخر، إنه التساهل مع الآخر وتقبله بكل ما فيه وعن طيب خاطر ورضا تام

تجدد الإشارة إلى أنّ دلالة التسامح لاتعني أبداً الذل والهوان، كما لاتعني في أي صورة من صور العجز ولا في أي شكل من أشكال الضعف والهوان، إنه سلوك إنساني بمحض الإرادة الحرة مع الوعي التام لنتائج هذه القيمة الإنسانية والتي تمثل بحق أسى القيم الإنسانية، لذا تعددت صورته وأنواعه في نقاط تالية:

2. في صور التسامح:

تعددت صور التسامح لتشمل جميع مجالات حياة الدوات البشرية ومختلف جوانبها، نذكر من بينها:

### 1.2 التسامح الأيديولوجي:

وهو الذي يكون على المستوى الأيديولوجي من عرض للمواقف والأفكار، الأمر الذي يؤدي إلى فتح مجال وأصعدة من الحوار الفكري، إذ كل واحد يبدي رأيه بكامل أريحية كما عليه أن يتقبل الموقف الآخر حتى ولو كان معارضاً له..

### 2.2 التسامح الثقافي:

"تعتبر الثقافة عن أفكار التقدم والتطور والتربية والعقل" (كوش، 2009، صفحة 18)، إنه السلوك الإنساني الناتج إما عن العادات والتقاليد، أو حتى ذلك السلوك الناتج عن مواكبة الحاضر بما يحمله من مستجدات في السلوك ونقصد به اللباس والبريستيجات وغيرها من السلوكيات المختلفة، وهنا وحتى وإن كانت هذه التصرفات مخالفة لطبيعة الحيز المعاش فيه نجد تقبلاً بصدر رحب ومجازة العديد مما يصدر من الآخر حتى ولو كان يراه الآخر قبيحاً مستهجنًا.

### 3.2 التسامح الإجتماعي:

وهو يقارب بشكل ما التسامح الثقافي، وما نقصد به هنا أنه إذا كان الإنسان حيوان إجتماعي بطبعه ولايستطيع أن يعيش بمعزل عن الجماعة، عليه أن يكون فرداً فاعلاً فيها وهذا بتيسير أمر التنشئة الإجتماعية من حب ووثام وتعاون وبر والتآخي واجتناب ما يكون من عنف في اللفظ أو الفعل

### 4.2 التسامح الإقتصادي:

إذا كانت البنية التحتية للتجمعات البشرية إنما تكمن في جانبها الإقتصادي فالأولى أن نلتمس هذا المبدأ – مبدأ التسامح- فيه، وهذا على مستوى التجارة، سواء أكان ذلك بين المتعاملين بعضهم ببعض، أو حتى على مستوى العرض والطلب في السوق بين البائع والمشتري، إلى غيرها من التعامل من تبادل تجاري وما إلى ذلك.

### 5.2 التسامح السياسي

حتى وإن كان الحديث عن التسامح في المجال السياسي ضرباً من الخيال أو إحدى اليوطوبيات التي نادى بها ثلة من العقول الإنسانية – السوية— فإننا نرى أنه لو طُبق هذا المبدأ لتنعّم البشرية بسلام دائم على سطح المعمورة، وهذا لأنّ ما عاشه الإنسان ويعيشه الآن وسيعيشه مستقبلاً من حروب وصراعات أودت بالعديد من الأنفس البشرية وسفك دماءها إنما كان من جراء اللاتسامح أي في العنف والتعصب والاستلاء والاستلاب وانتهاك للحرمات وظلمات متنوعة عديدة

6.2 التسامح الديني: ويعني تقبل معتقد الآخر واحترامه، وهذا لب ما سيحلل لاحقاً في رسالة "جون لوك"

### 3 سلوك الذوات بين التسامح والعنف -جدل الرحمة والعنف-

السلوك هو مجموع التصرف الفعلي والقولي الصادر عن الذوات الإنسانية منذ أن وطئت قدمها على سطح المعمورة إلى يومنا هذا، سلوك ينجم عن مدى تفاعلها مع محيطها الاجتماعي ابتداء من الأسري إلى الاجتماع المؤسساتي وما تعاشه وفق هذا من ظروف دون أن ننسى مدى تأثير الجانب النفسي في هذا، فضلا عن المجال الأخلاقي والتنشئة الخلقية، وغالبا ما يمكن أن نحكم على الأفراد بأنها خيرة، طيبة أو العكس بحسب ما يصدر منها من سلوكيات في سياق تعاملها مع الآخر، وما الوفاق والتآخي والتآلف بين الأفراد إنما راجع بالدرجة الأولى إلى ما يتحلى هؤلاء بنبل خلق وطيبة سرسرة، وعلى العكس من ذلك متى كانت السريرة أقرب إلى الحيوانية وإلى الشيطانية في بعض من لحطاتها إلا ونلاحظ مشاهد العنف والدمار الهلاك وما إلا ذلك من الوحشية الصارخة، الأمر الذي أدى إلى القيام بتحليل مقارن بين السلوكيات التي تتخذ من مبدأ التسامح نهجا بغيرها من السلوكيات التي ينعدم فيها، والنتائج مستخلصة من واقع التجربة الإنسانية وما يؤول إليه ذلك، فالمتسامح يرجع بالأثر النافع على صالح الفرد والجماعة وبكلمة واحدة أنه يستطيع أن يحقق بواسطة هذا الخلق أسى القيم الإنسانية والتي تعتبر بشكل أو بآخر رسالة الإنسان لأخيه الإنسان ألا وهو السلام، ذلك أنّ المتسامح يكون صاف الذهن صاف السريرة يتقبل الآخر كما يتفهمه بصررحب، حتى ولو كانت هناك تجاوزات بحسب المعقول تم التجاوز عنها بالصمت، بعدم الثأر، بعدم الإنتقام أيضا، وهذا يشكل صورا من الخيرية الإنسانية، بالمقابل نجد أنّ كل ما يصدر من اللا-متسامح من غضب وقلق مفرطين، من الإنتقام والتأر من ترقب الزلات وهذا كله ناجم طبعاً عن عدم تقبل الآخر جملة وتفصيلا لسبب أو لآخر بسبب الدغمائية التي كبلت تفكيره وهذا كله إنما يفرز سيلا من اللاأخلاقية كالعنف اللفظي والعنف الجسدي والعنف المعنوي، مما يترتب عنه نتائج وخيمة تطيح بالإنسانية في درك من الشرية والحيوانية.

لذا يمكن القول أنّ المتسامح إنما هو إنساني بالدرجة الأولى، وعى تماما حقيقة وجوده كما قدر قيمة الآخر بخلاف المتعصب المتصلب المتحجر الذي لم يفقه من وجوده سوى حب التسلط والسيطرة الناجمين من سوء نفسيته وهذا بالطمع والجشع بما في أيدي الآخر فضلا عن أنانيته المفرطة التي طالت كل شيء؛ هذا ما قصدهنا من معادلة جدل الرحمة والعنف المتصارعان فيما بينهما والمتواجدان بتواجد الذوات الإنسانية، وما رسالة اللامتناه لخلقه إلا لتحقيق هذا المبدأ فيما بينهم، وما آخر الأديان السماوية - الإسلام- إلا جوهر هذا المبدأ، تتبعها في ذلك دعوات المتناه في إنشاده وفي تحقيقه وهذا سواء باعتماد النقل أو باعتماد العقل هذا الأخير الذي كان من بين نتاج الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" في رسالته للتسامح وتفصيل ما جاء فيها نحلله في نقاط تالية:

### ثانيا: في أسس ودعائم رسالة التسامح لجون لوك

تحتوي مقدمة الرسالة الدافع الأساس الذي أدى بلوك إلى خط رسالته هذه، إذ عايش ظروفها قاهرة على مستوى المجال السياسي وهذا في معاناة رجال الساسة والدولة من الإنشقاق الديني الذي كان سائدا في أوروبا عامة وفي إنجلترا خاصة، وبالضبط بين الكاثوليك والبروتستانت- فنشأت عداوة بينهما أدت بزعة الكيان السياسي كان تابعها الفرار، فأشار -شافتسبري- (صديق جون لوك) إلى لوك بكتابة رسالته هذه، التي حررها باللاتينية ونشرها خلوا من إسمه سنة 1689م، والرسالة للا تتحدث عن التسامح بشكله العام وإنما خصت التسامح الديني الذي يتمحور حول فحوى " ليس من حق أحد أن يقتحم باسم الدين، الحقوق المدنية والأمور الدنيوية" لذا فإنّ فن الحكم ينبغي بالأ يحمل في طياته أية معرفة بالدين الحق، ومعنى هذا أنّ التسامح الديني يستلزم في نظر "جون لوك" بالأ يكون للدولة دين لأنّ خلاص الأنفس من شأن الله وحده،

ثم أنّ الله لم يفوض أحدا في أن يفرض على أي إنسان ديننا معيناً، ثم أنّ قوة الدين الحق كامنة في اقتناع العقل، أي كامنة في باطن الإنسان ؛ هوجم "جون لوك" جراء أفكاره هذه، فألف رسالة ثانية سنة 1690م، ورسالة ثالثة سنة 1692م (لوك، 1997، صفحة 7)، ودقائق الرسالة شملت نقاطا تالية:

#### 1. مبدأ التسامح عنوانا للكنيسة الحقّة:

الكنيسة مؤسسة للتجمع البشري بغية تأدية فرائض الدين المسيحي، الذي حمل رسالته "عيسى عليه السلام" إلى البشرية جمعاء وكان هذا قبل عهد الدين الإسلامي الذي حمل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم آخر رسالة والتمثلة في الدين الإسلامي الحنيف والذي لايقبل ديناً غيره باعتبار أنّ جميع الأديان السابقة قد طالها شيء من التحريف والتزوير وهذا بسبب الجرأة والسلطة التي اتخذها الباباوات والحاخامات في التعدي على الأمانة الإلهية. ودون أن نسترسل في تحليل هذا الإشكال لأنّ المقام لايتسع إلى ذلك ولأنّ الموضوع خارج المجال، نشير فقط إلى أنّ النصرانية "ابتدأت بداية سليمة كديانة سماوية إلى أن ظهر "بولس" اليهودي العدو للمسيح فعمد على التحريف والتزييف واخترق تعاليمها باختلاقه لخرافة الصليب وعقيدة الفادي - الخلاص- وتكفير الخطايا بزعم أنّ عيسى عليه السلام قد مات على الصليب تكفيراً لخطايا المذنبين والعصاة، فحول النصرانية إلى ديانة وثنية صليبية كفرية لاعلاقة لها بجوهر الديانة الإبراهيمية ولا برسالة موسى عليه السلام، ولا بالتعاليم الحقيقية لعيسى عليه السلام (بوخارف، 2010، صفحة 7)، ومن هنا جاءت المشادات لتعاليم رجالها وانتهاجهم الأساليب الملتوية والتي لا تمت بأي صلة لأي دين من الأديان السماوية والتي رضيها المولى عزّ وجل أن تكون على سطح الأرض عدا الدين الإسلامي الذي حفظه من كل مكيدة وتحريف، كان إذن تحريف في النص الإلهي وتحريف في تعاليمه، بل كان تجاوزاً صارخاً من قبل رجالها - رجال الكنيسة- وتاريخ الإنسانية شاهد - ولا يزال- على الجرائم التي ارتكبوها في حق الإنسانية عامة وفي حق الفكر والعلم خاصة، فلقد "اشتط بالمسيحيين عندما كانوا ضعافاً مغلوبين على أمرهم، ونزلت بهم آنذاك ألوان من الضيم والخسف والوحشية،، أنزلوا بمخالفهم ألوان العذاب والوحشية، أما تعاليم الرحمة والغفران فقد بقيت كلمات مسطورة دون أن يكون لها أي أثر مادي" (شليبي، 1998، صفحة 81)، وهذا التحول الذي كان في المسيحية من التسامح والرضا إلى الحقد والثأر فإنما كان وكما أشرنا سابقاً تحول من أفكار عيسى عليه السلام إلى أفكار بولس، وكان من أبشع "حركات الإضطهاد التي عاناها المسيحيون في القرن الأول تلك التي أنزلها بهم نيرون الطاغية (68م)، فقد ألقى بعضهم للوحوش الضارية تنهش أجسامهم، وأمر فطليت أجسام بعضهم بالقار وأشعلت لتكون مصابيح بعض الإحتفالات التي يقيمها نيرون في حدائق قصره" (شنودة، 1962، صفحة 101)، وفي القرن الثاني كان "المسيحيون يُعتبرون أنجاساً لا يُسمح لهم بدخول الحمامات وكانوا كما حصل في عهد -نيرون- يلقون للوحوش الضارية تفتريتهم في مدرج عام يضم خصومهم الذين يحضرون للتلمي بمشاهدة هذه المناظر" (الطويل، 1991، صفحة 25)، وسجل القرن الثالث "صوراً أخرى من أبشع ألوان التعذيب والإضطهاد للمسيحيين وذلك في عهد الإمبراطور - دقلد يانوس- الذي أمر بهدم كنائس المسيحية واعداد كتبها المقدسة وأثار آباءها، وقرر اعتبار المسيحيين مدنسين سقطت حقوقهم المدنية، وأمر بإلقاء القبض على الكهان وسائر رجال الدين، وتجريرهم وإذاقتهم ألواناً من العذاب، فامتألت السجون واستشهد العديد بعد أن مزقت أجسادهم تمزيقاً بالسياط وبالمخالب الحديدية، أو أحرقت بالنار وقطعت إرباً" (شليبي، 1998، صفحة 83)، والحقيقة أنّ المجال لا يتسع على الإطلاق لذكر ما كان من جرائم الكنيسة في حق الإنسانية إذ جاءت دراسات بكم مجلدات هائلة تصف هذا خاصة في تلك التي هضمت حق الفكر والعلم واضهدت العلماء والمفكرين كما مارست عليهم أشد العذاب بألوان شتى وقسوة ما بعدها قسوة، الأمر الذي بالعقل الإنساني على ضرورة الحد من هذا الجبروت المطلق وإلى وضع المؤسسة الدينية أو ما كان من

قبل رجالها محك النقد وكان جون لوك واحد من هؤلاء الذي أعلن صراحة في بداية رسالته أنّ "التسامح العلامة المميزة للكنيسة الحقّة" (لوك، 1997، صفحة 19)، وهنا يشير لوك إلى الوظيفة الأساسية للكنيسة وإلى ما يجب عليها أن تحمله داخليا فحسب ما يذهب إليه أنّ نظرة البعض في إلى التباهي والتفاخر بالأبنية – أي الكنيسة- وبقدمها أيضا وباسمها مهما كان عريفا، فهذا من الأمور العارضية لا الجوهرية بل أنه لا يحمل في طبيئته أية قيمة من القيم الدينية تماما كتعظيم الطقوس، أو الزهو بصلاح الإيمان، أو حتى التفاخر بالمعتقد الحق والإيمان الحق الذي لا يشاركونهم فيه أحد. فهل فعلا يمثل هذا علامات من علامات حب الكنيسة، بل هذا لا يدل إلا على شهوة البشر في تسلط كل منهم على الآخر، فهؤلاء لم يفقهوا بعد ماية الدين كما لم يحتكموا على غاياته الأساسية، فكم نحن بحاجة غلى ضبط الدلالة ووضعها في سياقها.

## 2. الدين الحق

هو "الجزء، الحساب، وهو العادة والشأن" (منظور، صفحة 1469)، وعند قدماء الفكر الفلسفي فيطلق على "وضع إلهي يسوق ذوي العقول إلى الخير، أما التعريف الفلسفي فيتعدد ويتنوع بتنوع الرؤية الفلسفية إذ لا نجد اتفاقا فيما بينهم في ضبط و تحديد دلالة المصطلح، أو ماهية الدين، ذهب إيمانويل كانط ( 1724-1804م) إلى أنه "معرفة الواجبات كلها باعتبارها أوامر إلهية" (كانط، 2012، صفحة 243)، وهنا نلمس الرؤية الكانطية للدين وهو يرجعه إلى المبحث الأخلاقي، أما فريدريك هيغل (1770-1831م) فرأى أنه هو "الروح واعيا جوهره، هو ارتفاع الروح من المتناهي إلى اللامتناهي" (هيغل، 2002، صفحة 33)، ويقصد به رفع المستوى الحياتي من النهائي إلى اللانهائي، والدين عنده أعلى صورة من صور الوعي بالذات؛ والمتأمل في الدين عبر مراحل الزمنية ندرك كيف أنّ له صورا متباينة بتباين الفترات الزمنية وتباين التجمعات البشرية أيضا من شرك، وأديان التسلسل الهرمي وتوحيد، وديانات طبيعية وضعية. تجدر الإشارة إلى ضرورة التفرقة بين الدين والملة والمذهب، فالدين من المفروض يكون منسوبا إلى الله، والملة تكون منسوبة إلى الرسول، والمذهب يكون منسوبا إلى المجتمع" (صليبيا، 1982، صفحة 572)، إلا أنّ المدلول الذي يصاحب هذه الدلالة أنه يتمثل في كل ما شرعه الخالق لمخلوقه، وهنا تكمن المهام التي يؤتي بها إعمال العقل وهو يحاول أن يتأمل في كل هذا في الشرائع والسنن التي ارتبطت مع الذوات الإنسانية ارتباطا لزوميا، ما حقيقتها، ما قيمتها، وما الغاية المرجوة منها.

ذهب "جون لوك" إلى أنّ "الدين لم يتأسس من أجل ممارسة الطقوس ولا من أجل الحصول على سلطة الكنيسة، ولا من أجل ممارسة القهر، ولكن من أجل تنظيم حياة البشر استنادا إلى قواعد الفضيلة والتقوى" (لوك، 1997، صفحة 19)، فعلى كل من حمل شعار المسيح –بحسب رأيه- ينبغي عليه أولا وقبل كل شيء أن يشن حربا على شهواته ورذائله، فمن العبث أن يدع الفرد بأنه مسيحي من دون أن تكون حياته مقدسة ومن دون أن يتمتع بسلوك طاهر. فعليه أن يكون لزاما رقيقا متواضعا، حتى يتسنى إقناع الآخر بتعاليم المسيحية إذ من الصعب على إنسان لا يكتثرت بخلصه الروحي أن يقنع الآخرين بأنه مهتم بخلص أرواحهم.، فليس من المعقول أبدا لؤلئك الذين تجردوا وانسلخوا من حب المسيحية والامتثال لجوهرها في أن ينجحوا في عملية التبشير والدعوة إلى انضمام الآخر إليها. ليشير لوك إشكالا في غاية من الأهمية وهو يشير إلى ما اقترفته الكنيسة أو رجال الكنيسة حتى نكون أكثر إنصافا من جرائم وتنكيل في حق الإنسانية باسم الدين من خلال مساءلة ضمائرهم كيف تسنى لهم أن يضطهدون ويعذبون ويدمرون ويقتلون بحجة الدفاع عن الدين. هل يفعلون هذا وقلوبهم مملوءة بالصدقة والطيبة؟ يصدق هذا عند "جون لوك" في حالة واحدة فقط عندما يرى هؤلاء المتعصبين الشرسين يقومون أصدقاءهم ومعارفهم عندما يعصون قواعد البشارة، أو عندما يراهم يحاربون بالنار والسيوف أعضاء ملتهم الذين تلوثوا بالرذائل، والذين هم معرضون للعقاب الأبدي بسبب عدم طهارتهم، أو حتى عندما يعبرون عن حيمهم ورغبتهم في خلاص نفوسهم وتحملهم لآلامهم وتحملهم

لجميع ألوان القسوة، إلا أنّ كل صفة إيجابية لاتكاد تبين مع فؤلاء با تجدهم يدمرون باسم الدين من جهة العارض للبداهة الأولى أنه تعصب ديني، إلا أنك تجدهم بالمقابل "يمارسون الدعارة والإختلاس وإيذاء الآخرين، واقتراف كل ألوان الشرور، إذ استمروا ارتكاب الإثم الشيطاني لكي يسيطروا على رعاياهم وعلى شعوبهم مثل هذه الأمور وما شابهها مناقضة تماما لمجد الله ولطهارة الكنيسة وإخلاص النفوس" (لوك، 1997، صفحة 20)، وهنا يعجب "لوك" من هذه المفارقات شرور ترتكب باسم المسيحية الخاوية من تعاليمها. ثم قد يعترض عارض بالتماس العذر لهذه الفئة من الأشرار بحجة أنهم يدعون الآخر إلى اعتناق الديانة المسيحية، فكان من الضروري استخدام السيف وال نارن بغض النظر عن وضع الجانب الأخلاقي في الحسبان الأمر الذي يراه لوك منافيا تماما للنهج السليم في الدعوة، ذلك أنّ كل المحاولات التي تحول "الآخرين من عقيدتهم واجبارهم على الإعتراف بما لايعتقدون بحجة أنّ هذه الأخيرة كاذبة، وبأنّ طقوسهم لايسمح بها العهد الجديد، إذا حدث ذلك فمن المؤكد أنّ مثل هؤلاء ينشدون تجمعا ضخما للمشاركة في العقيدة" (لوك، 1997، صفحة 22)، لا أن يؤسس بذلك كنيسة مسيحية حقيقية، لذا يمكن تبرير وحشية هؤلاء كما يمكن تبرير لآدميتهم، لذا ليس من المستغرب ولا بالمستبعد تصرفهم هذا باعتبار أنهم لايدافعون عن انتصار الدين الحق وعن كنيسة الله، فالنضال المسيحي حسب "لوك" لايمتاز برفع السيف والنار، وإنما كان مسلحا بسلام العهد الجديد والأسوة الحسنة. فمنهج رفع السيف والنار إنما هو منهج الوحشية لاالأدمية فضلا عن منهج المسيح عليه السلام، ولوكان الأمر في مصداقيته كذلك لكان على المسيح أن يتخذ كتائب من جنّة السماء عددها يفوق ما يكون ميسورا لكنيسة واحدة مهما تبلغ من القوة ومهما يكن لديهم من فيالق. هنا يرفع "جون لوك" شعار "مبدأ التسامح" في أفق المعتقد الإنساني، ذلك أنّ العهد الجديد قد نادى به في خضم ما تختلف فيه الذوات البشرية في معتقدها، القضية التي لاتتماشى والجانب النقلي بقدر ما تتماشى أيضا مع الجانب العقلي، ذلك أنّ التسامح له من الأثر الإيجابي على حياة الفرد والجماعة ماهو واضح بين لاغبار عليه.

### ثالثا جون لوك وعلاقة السياسي بالديني – تمهيدات وإرهاصات أولية في إرساء صرح العلمانية -

يعالج "جون لوك" في رسالته قضية في بالغ من الأهمية، ألا وهي علاقة السياسي بالديني، وتحديدًا علاقة رجال الكنيسة بالسياسة المدنية، لذا يدع إلى ضرورة النظر بدقو وبوضوح بين مهام الحكم المدني وبين الدين، بل ويجب تأسيس الحدود الفاصلة والعادلة بينهما، ذلك أنها تعد القضية الفاصلة في القضاء على الخلاف الذي تعيشه المجتمعات والأمم، ولن يظهر الدين بأحسن مظهر له وكما ينبغي أن يكون إلا بهذا الفصل والأمر نفسه في بالنسبة للدولة التي تهتم بأولويات بعيدة كل البعد عن اهتمام رجال الكنيسة.

#### 1. الدولة والحق المدني للأفراد

ينذهب "جون لوك" إلى أنّ الدولة هي "مجتمع من البشر يتشكل بهدف توفير الخيرات المدنية والحفاظ عليها، وتنميتها، ويقصد بالخيرات المدنية: الحياة، الحرية، الصحة، راحة الجسم، بالإضافة إلى امتلاك الأشياء مثل المال والأرض والبيوت والأثاث وماشابه ذلك" (لوك، 1997، صفحة 23)، فالدولة بهذا المفهوم إنما تكون في خدمة رعاياها وهذا بأن تسعى لأن تكفل له حقه في أن يحيا حياة كريمة تليق بمستواه كما تليق بإنسانيته؛، كل هذا يعمل الحاكم على توفيره لرعاياه وهذا من خلال الامثال لما يمليه عليه واجبه من تطبيق للقوانين، دون استثناء وهذا لتوفير الضمانات التي تسمح لكل الناس على وجه العموم، ولكل فرد على وجه الخصوص، بالإمتلاك العادل للأشياء الدنيوية، لتضع الدولة مكابح ترذع كا من يحاول أن يمس بتعاليمها ويقترح لوك بأن تعاقب الدولة كل من كانت له الجرأة بالمساس بقانون العدل والمساواة بأن تحرمه من

الخيرات المدنية أو من الخيرات التي من حقه أن يتمتع بها. لذا ينبغي على الحاكم أن يكون "مسلحا بسلطة رعاياه وقوتهم من أجل معاقبة من ينتهكون حقوق الغير. وحيث أنه يتحتم على جميع إدارات الحكم أن تشغل بالشؤون المدنية، وأن تكون السلطة المدنية والحقوق والسيادة محكومة بهدف واحد هو رعاية هذه الشؤون المدنية وتنميتها بحيث لا تمتد هذه الرعاية بأي شكل من الأشكال إلى خلاص النفوس" (لوك، 1997، صفحة 24)، ليعزز "لوك" موقفه هذا بعدة اعتبارات منها:

**1.1 خلاص النفوس ليس من شأن الحاكم المدني أو من شأن أي إنسان آخر، ذلك لأنَّ الحاكم ليس مفوضا من الله لخلاص نفوس البشر، وأنَّ الله لم يكلف أي إنسان بذلك، لأنَّ الله لم يفرض دينه بالقوة حتى يتسنى للحاكم - حاكم الحق المدني - أن يتدخل في الشأن الديني ليضع رذعا لكل من خالف تعاليم الدين المسيحي، هذا من جهة ومن جهة أخرى أنه من غير المعقول أن يمنح الشعب مثل هذه السلطة للحاكم لأنه لا يقبل أي إنسان سواء أكان أميرا أو من أفراد الرعية أن يترك رعاية خلاصه لإنسان آخر لكي يحدد له إيماننا معينا أو عبادة ما، لأنَّ جوهر الدين الحق وقوته يكمنان في القدرة على اقتناع العقل اقتناعا جوانيا شاملا، كما أنَّ الإيمان لا يصبح إيماننا دون اعتقاد، ليتحول الأمر من التكفير عن الخطايا باسم ممارسة الدين والامتثال إلى تعاليمه إلى تقديم عبادة خاوية الروح والمعنى ومنه إلى إضافة خطيئة على خطيئة وهذا للوقوع في النفاق وازدراء الجلالة الإلهية.**

**2.1. أنَّ رعاية النفوس ليست من شؤون الحاكم المدني لأنه يحكم بمقتضى سلطة برانية بينما الدين الحق الذي ينشد خلاص النفوس ينشد اقتناع العقل اقتناعا جوانيا، وأي شيء خلاف ذلك لا يرضى عنه الله. ومن طبيعة العقل أنه لا يمكن إجباره على الإيمان استنادا على قوة برانية. فمصادرة الأراضين والسجن، والتعذيب وما إلى ذلك، لا يمكن أن يغير الحكم الجواني على الأشياء.**

**3.1. إنَّ العناية بخلاص نفوس البشر ليست و بأي حال من الأحوال من مهام الحاكم، ذلك حتى ولو اقتنعنا بمقدار قيد أنملة بأن يغير البشر قناعاته بسلطة القانون وقوة العقوبات، فإن كل ذلك لا يسهم أبدا في خلاص نفوسهم. هذا ولإعتبارات أخرى يراها لوك بأنها كافية للتدليل على أنَّ سلطة الحكم المدني تتعلق فقط بالخيرات المدنية للبشر، كما تقوم على حماية الأشياء المتعلقة بهذا العالم ولا تمت بأية صلة على العالم الآخر.**

## 2. الكنيسة وخلاص الأنفس

يذهب "جون لوك" إلى أنذ الكنيسة عبارة عن جماعة حرة من البشر الذين يجتمعون بمحض إرادتهم بهدف عبادة الله وبأسلوب يتصورون أنه مقبول من الله وكفيل بخلاص نفوسهم.. لا أحد يولد عضوا في أية كنيسة، وإلا تنتقل الدين بالوراثة بين معتنقين تماما كانتقال الإرث من الآباء إلى الأبناء، فليس ثمة أي إنسان ملتزم بطبيعته بكنيسة معينة أو بطائفة معينة، إلا أنه ينضم طواعية إلى كنيسة ما يعتقد أنه يمارس فيها العقيدة الحقة، والعبادة المقبولة من الله، حيث أنَّ الدافع الوحيد في انضمامه على مثل هذه الكنيسة هو أمله في الخلاص فإنَّ هذا الدافع أيضا هو علة استمراره فيها، فإن اكتشف أخطاء في معتقدات الكنيسة التي انضم إليها أو أية تناقضات في أساليب العبادة، فواجب أن تترك له حرية الخروج من ها مثلما كانت له حرية الانضمام إليها؛ إنَّ الشيء الوحيد الذي يربط أي فرد بالمجتمع الديني هو أمله في حياة أبدية، ومنه فإنَّ الكنيسة ماهي إلا تجمع لأفراد احتشدوا فيها طواعية لتحقيق هذه الغاية.

وهذا تكون غاية أية مجتمع ديني هي "عبادة الله وبالتالي نوال الحياة الأبدية ولهذا ينبغي أن يتجه أي نظام إلى تحقيق هذه الغاية، وأن تكون جميع القوانين الكنسية محكومة بهذه الغاية. كما لا ينبغي أن ينشغل هذا المجتمع بل ليس في إمكانه أن ينشغل بإمتلاك الخيرات المدنية والدنيوية، ولا يمكن استخدام القوة في أية مناسبة مهما تكن، لأنَّ القوة تخص الحاكم المدني، وملكية الخيرات البرانية تقع تحت سلطان تشريعه" (لوك،



1997، صفحة 30)، والحقيقة أنّ "جون لوك" هنا يثير إشكالا لازالت الإنسانية تعاني منه خاصة في العالم الإسلامي إذ العديد ممن استتروا وراء الدين لاستعطف الشعوب ولم تكن غايتهم سوى تحقيق أغراض ومنافع شخصية بعيدة كل البعد عن تحقيق ما يطمح له المحكوم من الجانب الديني.

### 3. في واجب التسامح وفي آلياته

يطرح "جون لوك" قضية مدى امتداد واجب التسامح، وما الذي يتطلبه هذا الواجب من كل إنسان، ليحدد هذا في نقاط تالية:

1.3. ليس على أي كنيسة كانت أن تقوم بالسيطرة على إي إنسان وهذا في أن تبقية في حضنها إلى أبد الأبدن، ولا بد وأن نلفت الإنتباه إلى أنّ المجتمع الديني يختلف تماما على المجتمع المدني ذلك أنّ التمرد في هذا الأخير يحتاج إلى تطبيق قوانين صارمة عليه للحفاظ على تماسكه، بينما لا يمكن أن نقوم بأمور مشابهة في المجتمع الديني لأنّ استخدام القوة من اختصاص الحاكم وحده،

2.3. ليس من حق شخص بأي حال من الأحوال أن يحقد على أي شخص آخر في شأن متعه المدنية، لا لسبب إلا لأنه ينتمي إلى كنيسة أخرى، أو يؤمن بدين آخر، ذلك أنّ جميع الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها الأفراد فهو يتمتع بها من باب أنه مواطن فيلزم إذن أن تكون محفوظة له دون أن تنتهك، فيجب أن لانقيم علاقة بين هذه الإمتيازات المدنية وبين الجانب الديني للأفراد. لذا لا يجب أن يلحق به أي ضرر لإعتبارات دينية، وهذا ما يخول الحفاظ على الحق الإنساني، ثم ينادي "جون لوك" بالأ نضيق من معايير العدل والإحسان والمحبة ويجب أن نضيف إليها مبدأ السماحة، لأنّ هذا يوصي بها الإنجيل كما ينصح بها العقل" (لوك، 1997، صفحة 32)، وهنا يقع "جون لوك" وحسب اعتقادنا في تناقض، ذلك أنّ الطرح الذي أتى به يضع الدين في حيز لا يمكن وبأي حال من الأحوال أن يختلط مع الجانب المدني، لنجده هنا يستعين بالنص الديني لتحقيق غاية المدني!، وهنا نتساءل إن كان بصدد الفصل بين السياسة والدين كدين أم بالفصل بين السياسة ورجال الكنيسة؟، ثم ينادي بضرورة التسامح بين الأفراد المتباين دينها وهنا يقصد الكاثوليك والبروتستانت وكذا عن الكنائس الخاصة بكل واحدة منها، ليس لهؤلاء حق التشريع للأخر، وليس للحاكم هذا الحق أيضا، لأنّ الحكومة المدنية ليس في إمكانها أن تمنح حقا للكنيسة، كما أنّ الكنيسة ليس في إمكانها أن تمنع حقا لهذه الحكومة، ولهذا فإنّ الكنيسة تظل دائما كما سواء انتهى إليها الحاكم أو انفصل عنها، لأنها تظل مجتمعا حرا ذا إرادة، لاتطلب قوة السيف عندما ينتمي إليها الحاكم ولانفقد أيا من حقوقها كالتعليم والحرم عندما ينفصل عنها، باعتباره حق مشروع ثابت لأي مجتمع حر.

3.3. واجب رجال الكنيسة اتجاه التسامح: أما ما يتطلبه الإلتزام بمبدأ التسامح ممن يتميزون عن سائر البشر بخصائص كنسية ودينية بحسب ما كانت عليه مراتب السلطة الكهنوتية، أنّ مادامت ذات طابع كنسي فيجب أن تكون مقيدة بحدود الكنيسة؛ إذ ليس في إمكانها بأن تمتد إلى الشؤون الدنيوية لأنّ الكنيسة في ذاتها منفصلة عن الدولة وتمتيزة عنها تماما، ومن يخلط بين المجتمعين كمن يخلط بين السماء والأرض، وهما متباعدان أشد التباعد ومتضادان أشد التضاد، إذ هما في أصلهما وغايتهما وأعمالهما وفي كل شيء متمايزان تماما ومتباينان بلا حدود، ومن ثمة فلا يحق لأي إنسان مهما تكن رتبته الكنسية، أن يحرم إنسانا آخر ليس عضوا في كنيسته وليس منسبه إلى إيمانه، من الحرية أو من أي جزء من خيرات الدنيوية بحجة أنه متباين عنه دينيا، لأنّ ما هو غير مشروع للكنيسة لا يمكن أن يصبح مشروعا لأي عضو من أعضائها استنادا إلى أي حق كنسي. ثم لا يُطالب "جون لوك الكنيسة" بالكف عن ممارسة العنف والنهب وكل أساليب الإضطهاد بل ملزمون أيضا بالتزامات السلام والإرادة الخيرة تجاه البشر، واتجاه الضالين، وتجاه من يخالفونهم في الإيمان والعبادة، وتجاه من يوافقونهم أيضا، كما يحثون البشر على المحبة والوداعة والتسامح.

4.3 واجب الحاكم اتجاه التسامح: تكمن مهمة الحاكم في تسنين القوانين واجبار الرعية على تنفيذها عن طريق العقاب، إنّ المتأمل في ماخطه "جون لوك" في هذه الحيثية يلمس أنه مجرد الحاكم من أن يفقه بالجانب الجواني للأفراد هذا الأخير الذي يكون من اختصاص الجانب الديني، وهودائم التكرار في أنّ الحاكم مهما بلغ منقوة ومن سلطة فإنه عاجز تماما على أن يدلي بأمر أو بتخطيط في هذا المجال الذي يتجاوز له لأبعد حد، و"ليس من سلطانه أن يفرض طقوسا معينة لعبادة الله بقوة القانون سواء في كنيسة أو في أية كنيسة أخرى، ذلك وإن كان الحاكم يحتكم على الأمور الحيادية، إلا أنه لا ينبغي له بأن يشرع كما يشاء، لأنّ الخير العام هو معيار التشريع، لتكون خلاص النفوس المهمة الوحيدة للكنيسة، وأنّ الحاكم غير ملزم بعقاب من يقترف الخطيئة من البشر، لأنّ هذه الخطايا لاتمس حقوق الآخرين ولا تنتهك سلامة مجتمعاتهم. إلى غيرها من الأفعال والسلوكيات التي ينبغي للحاكم بالأ يتدخل في تقويمها باعتبار أنها من الشأن الديني لا المدني.

### II. نتائج الدراسة

إنّ أهم ما خرجنا به من نتائج من خلال ورقتنا البحثية هذه أنّ رسالة التسامح التي خطها "جون لوك" إنما حتى وإن كانت توحى في البداية الأولى إلى تحقيق مبدأ إنساني يمكن القول عنه أنّ به وحده تصل الإنسانية إلى أعلى مراتبها، إلا أننا نجدده يطرح إشكالا أخذ فيما بعد تطورا ملحوظا في ساحة الفكر الإنساني وهو ضرورة الفصل بين الدين والدولة، الشعار الذي أصبح يردد في الوقت الراهن ليس في الفكر الغربي فقط وليس بمن يدين بالديانة المسيحية فقط وإنما حتى في الدول العربية والإسلامية وهنا نستوقف هذه العقول للحظة داعين للتريث ولتأمل طرح لوك، الذي لم يدفعه لطرحة هذا سوى ما كان من جبروت وطغيان وقهر من قبل رجال الكنيسة الأمر الذي أدى إلى سلسلة من الثورات اتجاهها، فالمبرر هنا كاف والحاجة إليها واضحة بل ضرورية؛ أما وأن تأتي بالنهج البيغواي ونعمل على إسقاط ما عانت منه أوروبا من ويلات رجال الكنيسة على الدين الإسلامي الحنيف الذي لم يأت ولم يأمر إلا بما فيه الخير لصالح الفرد والجماعة فهذا ما نراه عبثا واجترارا من دون وعي لكل من يدع ويقول بهذ، فشتان بين نظام ديني قهر رعيته وآخر أنقذها من ظلام حالك إلى نور ساطع.

### III. خاتمة:

رسالة التسامح لجون لوك هي رسالة في تحقيق مبدأ أسعى تتطلع إليه الإنسانية وهذا في تعاملها مع الآخر على المستوى الداخلي ونقصد به بين أفراد المجتمع الواحد، أو مع بني جنسه من مجتمعات أخرى، وكم نحن بحاجة لهذا المبدأ في زماننا الحاضر للحد مما تعانیه الإنسانية من حروب ودمار شامل وسفك للدماء. إلا أنّ لوك قد عني بضبط الدلالة بما كانت تعانیه الأوضاع آنذاك من جدل قائم بين رجال الكنيسة فيما بينهم وكيف أثر هذا على الإستقرار السياسي، ليفصل "جون لوك" في القضية ويدع إلى الفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية وبين كيف أنّ لكل سلطة بينهما مهام خاصة بها ولا يمكن لأي سلطة أن تتدخل في شؤون الأخرى وإلا هذا ما يحدث الإختلاف ويزرع الإنشقاق بين الأطراف..

## الإحالات والمراجع

- ابن منظور. (1291). *لسان العرب*. القاهرة: دار المعارف .
- ابن منظور. (بلا تاريخ). *لسان العرب*. القاهرة: دار المعارف .
- أحمد شلبي. (1998). *المسيحية*. مصر: مكتبة النهضة المصرية .
- أندري لالاند. (2001). *موسوعة لالاند الفلسفية*. بيروت: منشورات عويدات.
- إيمانويل كانط. (2012). *الدين في حدود مجرد العقل*. بيروت: جداول.
- بوخارف، ن. ن. (2010). *المسيحية دين الله الذي أنزله على المسيح أم هي ديانة بولس*-<https://www.noor-book.com/>.
- توفيق الطويل. (1991). *قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام*. الزهراء للإعلام العربي .
- جلال الدين سعيد. (2004). *معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية*. تونس: دار الجنوب .
- جميل صليبا. (1982). *المعجم الفلسفي*. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- جون لوك. (1997). *رسالة في التسامح*. مصر: دار الكتب المصرية.
- دنيس كوش. (2009). *مفهوم الثقافة في العلوم الإجتماعية*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية .
- زكي شنودة. (1962). *موسوعة تاريخ الأقباط*. /: <https://makram0zaki0shenouda.wordpress.com/>.
- فريدريك هيجل. (2002). *محاضرات فلسفة الدين*. القاهرة: دار الكلمة.
- محمد الشريف الجرجاني. (1985). *كتاب التعريفات*. بيروت: مكتبة لبنان .